# هوامش من العالم السفليّ

إيليا سليمان

ترجمة: س. إ.

المسافة، أفي المكان كانت أم في الزمان، شرطٌ مسبَّقٌ لصيانة سلامة اللُّغة. والتأمُّل في المباشِر يَعْني فقدانَ تلك المسافة الفاصلة. هذه المسافة هي ما أدعوه «الموقعَ الشعريّ.» إنَّه حين تُعلِنُ اللُّغةُ عن ذاتها لتصير هي الحدثَ أو المضمونَ.

لستُ صحافيّاً، ولا أَطْمح إلى أن أكون كذلك. ولكنَّك حين سألْتَني إنْ كنتُ على استعداد لأن أكتب شيئًا عمَّا يَحْدث من حولي، شَعَرْتُ بالدغدغةِ والإغواءِ والإغراء. ذلك لأنَّني كنتُ أحتاج إلى أن أتكلَّم.

أَشْعر أنَّني وقعتُ في الفخّ.

وهذا كلُّه ناهيكَ عن التزامي تجاهَكَ، وهو التزامٌ لا أستطيع الوفاءَ به. فأنت تَعْلم، وذلك هو سببُ طلبك مني أن أَكْتب، أنَّني أُعِدّ العُدَّةَ لتصوير فيلمي القادم، وأنا الآن في المرحلة التي تَسْبق الإنتاج. الوقتُ ليس إلى جانبي. أَسْتيقظ يوميّاً الساعةَ السادسةَ صباحًا. فأكون بمعيَّة مدير التصوير، ونُكِبُّ على تقطيع المشاهد السينمائيَّة découpage، وهذه هي أهمُّ المراحل التي تَسْبق الإنتاجَ وأكثرُها حَسْمًا. يومًا بعد يوم نستيقظ أَبْكرَ فأَبْكر، لأنَّنا نَعْجز عن الالتزام ببرنامجنا المقرَّر. فيكون علينا أن نتوقَّف أثناء النهار، ولساعاتٍ في أغلب الأحيان، بسبب انهيار الوضع.

إنَّني أعيش، أو أعاني، سندروم [متلازمَةَ] فرانسيس فورد كوپولا، سوى أنَّها تأتي قبل التصوير إنْ كان ثَمَّة تصويرٌ. أؤدِّي من جديدٍ «حالَ الأشياء»[1] لا بسبب المُنْتِج الذي كان ومايزال في واقع الأمر يُشجِّعني، بل لأنَّ الجيشَ الإسرائيليّ قرَّر أن يَحْتلّ أماكنَ تصوير الفيلم ليَصْنَعَ في ديكورنا إعلانًا لفيلم رعبٍ جديد. لقد قرَّر الجيش أن يَصْنع فيلمًا عن فيلمنا الذي لم يُصْنَع بعد.

صرتُ أؤْمن، عبر طريقتي الأنانيَّة الخاصة، بأنَّني نبيّ، ولكنَّني نبيٌّ مُخْفِق. ويعود هذا، من جديد، إلى إساءة تقديرٍ في الوقت. فلقد بدأ الأمرُ كلُّه على النحو التالي: قبل بضعة أسابيع، أو للدِّقَّة قبل أن تبدأ الأحداثُ الأخيرة، عَقدتُ اجتماعًا مع رئيس شرطة منطقة بيت لحم. أخبرتُه بما نحتاجُ إليه، وهو أن يَسدُّوا الشارعَ الثاني الرئيسيّ في بيت لحم حيث سنُعيد خلقَ حاجز «الرام» الإسرائيليّ الذي يَفْصل القدسَ عن رام اللّه، وهناك ستجري ثلثُ أحداث الفيلم. كان جوابُ رئيس الشرطة إيجابيّاً جدّاً، وباركني. ولكنَّني سألْتُه من بعدُ، ماذا لو ـ فَرَضًا ـ كنّا نصوِّر فيلمَنا أمام الحاجز المختلق الذي سنبنيه فَحَدَثَ شيءٌ ما على الحاجز الحقيقيّ عند مدخل بيت لحم؟ علاوةً على ذلك، ماذا سيَحْدث إنْ أفاق سكّانُ بيت لحم ذاتَ صباح وخَرَجوا إلى شرفاتهم، الكائنةِ هناك في أعالي التلال، ليتمطَّوا استعدادًا ليوم جديد، فَنَظَروا إلى أسفل التلّة ليكتشفوا حاجزًا في قلب مدينتهم المحرَّرة؟ سيظنُّون أنَّ الإسرائيليِّين قد عادوا. «لا تَقْلقْ،» قال رئيسُ الشرطة لي، «فقط ضَعْ إعلانًا في التلفزيون المحليّ يُعْلِم أبناءَ المدينة بما تفعله. أمّا بخصوص احتمال المواجهة عند الحاجز الحقيقيّ فلا تقلقْ أيضًا. فهو على بُعْدِ ميلٍ عن الحاجز المختلق، ولن يبدو في التصوير أو يؤثِّرَ فيه.»

بعد لقائي رئيسَ الشرطة، تناولتُ طعام الغداء مع الملحق الثقافيّ الفرنسيّ في فندق انتركونتيننتال في بيت لحم. وصادف أنَّ الفندق يقع عند مدخل المدينة، غيرَ بعيدٍ عن الحاجز الحقيقيّ. أثناء الغداء مع المُلْحق ومديرِ التصوير وبضعةِ أصدقاء، ما تُرانا كنّا نناقش غيرَ أمور السينما الفلسطينيَّة؟ كانت ثمَّة أصواتٌ مألوفةٌ تأتي من الخارج، من مسافةٍ بعيدةٍ أولَ الأمر، ولكنَّها راحت تَقْترب

١ ـ L'Etat des choses: فيلم لڤيم ڤاندرز. (م)

# هوامش من العالم السفليّ

رويْدًا رويْدًا. أرى مديرَ الفندق يَذرع ساحةَ الفندق جيئةً وذهابًا. أرى النَّادلَ والبوَّابَ غيرَ مشغولَيْن بجلب الشراب أو حملِ حقائب نزلاءِ الفندق، بل بإغلاق مصاريع النوافذ وسدِّ المنافذ التي قد يتسرَّب منها الرصاصُ أو قنابلُ الغاز المسيِّلةُ للدموع. وأخيرًا طُلِبَ منا أن نُخلي الساحةَ وأن نَدْخل غرفة عشاء آمنة. ثمَّة سيارةُ إسعاف أسمعها تتوقَّف خارج الفندق. طلقاتٌ بنادق. أتجرّأ وأَنْظر من النافذة. مدير الفندق يشير إليّ بأن أَنْظر إلى بناية في الجهة المقابلة، يتمركز فيها قنَّاصةٌ إسرائيليُّون. صديقتي التي تَجْلس بقربي فلسطينيَّةٌ عائدة، وتتوقَّع أن تَضَعَ مولودَها خلال أسابيع. كان حُلمُها أن تَلِدَ في بيت لحم، علامةً على عودتها إلى وطنها. لكنَّ قنابل الغاز الإسرائيليَّة المسيِّلة للدموع ليست «كاشِرًا» [حلالاً يهوديّاً] للحوامل، فتدبَّرتْ بعد قليلٍ الهروبَ من الفندق إلى عمق بيت لحم. وصلتْ سيّاراتُ «جيپ» الشرطة الفلسطينيَّة إلى الفندق وأَخْرجت الملحقَ الثقافيَّ منه ورافقتْه إلى ملجإٍ أكثر أمانًا. لكنَّنا، أنا ومديرَ التصوير، عَلِقْنا حيث نحن أربعَ ساعاتٍ إضافيَّة. وأخيرًا هدأ الوضعُ. فاقترحتُ على مدير التصوير أن نتوجَّه إلى الحاجز المختَلَق لنرى إنْ كان قد تأثَّر بما كان يَحْدث عند الحاجز الحقيقيّ، وإنْ كان ممكنًا العملُ في حال استمرار الوضع على حاله. الحاجز المختَلَق لم يَصِرْ خشبةً لمسرحٍ بعدُ؛ فالديكور مازال في خيالنا. ما نَمْلكه كمخطَّط إجماليّ هو رسمٌ تخطيطيّ فقط. وما نراه الآن بأعيننا إنَّما هو طريقٌ تافهٌ ذو منعطف. حين يُخْفِقُ خيالُنا في موضعة الحدث كنّا نعود ببساطةٍ إلى الرسم التخطيطيّ لنعزِّز خيالَنا. ولكنْ، عند هذه النقطة، وفيما نحن جالسون في سيّارتنا نحاول أن نتخيَّل المشهدَ، نتلقَّى فجأةً مساعدةً من الحاجز الحقيقيّ. كلّ بضع دقائق تمرّ بسرعةٍ سيارةُ إسعاف أو سيارتان. نرى سحابةً ضخمةً من الدخان الأسود ترتفع في القُرب. وأخيرًا، وعلى جناح الريح، غازٌ مسيِّلٌ للدموع. لم نعد نرى، فتخيَّلْنا.

الدموعُ في عيوننا؛ لم نَعُدْ نستطيع أن نَنْظر في محدِّد الرؤية. Eyes Wide Shut [لستانلي كوبريك].

آڤي، المدير التنفيذيّ للفيلم، هو واحدٌ من أكثر الأشخاص الذين التقيتُهم في حياتي عذوبةً وإخلاصًا. ولكنَّ آڤي إسرائيليّ. آڤي يَشْعر ـ لأسبابٍ واضحة ـ براحةٍ أكبر حين يكون في الناصرة لا في الضفَّة الغربيَّة. ففي الناصرة يَشْعر آڤي بحرجٍ أقلّ. في الناصرة يستطيع آڤي أن يتحدَّث العِبْريَّة، فيجيبه الناسُ في الناصرة بالعِبْريَّة أيضًا. ذاتَ يوم يصل إلى الناصرة بصحبة بعض الإسرائيليِّين الذين وظَّفهم ليعملوا على الفيلم. أَطْلب من آڤي ألاَّ يتحدَّث بالعبريَّة في الناصرة، فيُذْهله طلبي. أَشْرح لآڤي ضرورةَ ألاَّ يسلِّم بما يَظْهر من الناصرة. «إنَّها تبدو هادئة،» قلتُ، «ولكنْ، صدِّقْني، إنَّه الهدوء الذي يَسْبق العاصفة. الناس هنا يَكْرهون إسرائيلَ لما تمثِّله، وذلك لأسبابٍ عدّة، وكلُّها وجيهة. الأوضاع هنا قد تسوء بين ليلة وضحاها. ولستَ مرحَّبًا بك في الناصرة، حتى لو قيل لك عكسُ ذلك.»

هناك فلسطينيُّون وفرنسيُّون وإسرائيليُّون يَعْملون على الفيلم. أُعلن أمامهم أنَّ اللُّغة الرسميَّة أثناء العمل هي الإنكليزيَّة. يُسمح للفلسطينيِّين بالتحدُّث في ما بينهم بالعربيَّة. أمَّا اليهود فلا يُسمح لهم بالتحدُّث بالعبريَّة (ولستُ غيرَ مُنصِف في هذا، ولكنَّ شرح موقفي قد يَسْتغرق وقتًا طويلاً هنا). «آڤي،» قلت، «يومًا ما سيَنْفجر الوضعُ بشكلٍ لم يسبقْ له مثيل، وسترى أيّ عنف سيتجاوز هنا ما سيكون عليه الوضعُ في الضفَّة الغربيَّة. إنَّ ٥٢ عامًا من ارتكاب ما أنت تَعْلمه بحقّ الفلسطينيِّين في إسرائيل ليس لا شيء.»

ذلك الـ «يومًا ما» في نبوءتي جاء بعد أيام قليلة: إغلاقات، وحواجز، وإطلاق نار.

آخذُ صديقتي «ر» ونتوجَّه إلى رام اللّه. نصل إلى حاجز إسرائيليّ عند طرف المدينة. «ممنوع الدخول،» قال الجنديّ، «إنَّهم يُطْلقون

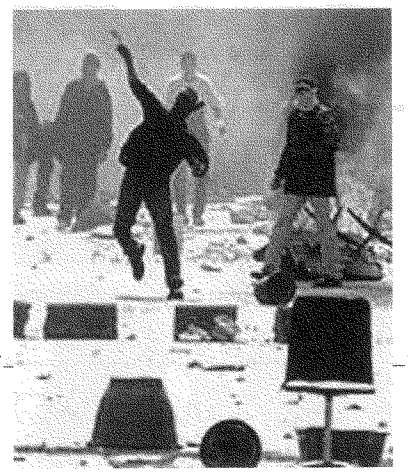

بعد ٥٢ عامًا فَهِم الإسرائيليُّون أنَّ من يسمّونهم «عربَ إسرائيل» قد مُسِخوا فلسطينيِّين

النارَ في الداخل. استديرا فقط، وارحلا.» ولكنَّ «ر» شخص استفزازيّ، وتمتلك الجرعةَ الملائمةَ من الاحتقار للجنود. إنَّها لا تصدِّقهم. «أنا لا أسمع أيَّ رصاص،» تقول «ر» لهم. ولكنَّ الجنديّ يقول متوعِّدًا: «غادرا فقط وفورًا.» غير أنَّنا نَجْمد في مكاننا، ولا نتزحزح؛ فنحن نشعر أنَّ من حقِّنا أن نرى ما حدث لأصدقائنا في رام اللَّه. الجنديّ يمشي جيئةً وذهابًا. إنَّه يتوتَّر. يبدأ برفع سلاحه قليلاً في اتِّجاهنا، مُلمِّحًا إلى ما يُمْكن أن يَحْدث إنْ لم نتحرَّك. أُدرك أنَّ علينا أن نستدير ونرحل. ما يتَّضح لي حقّاً هو أنَّه لم يَعُد في مقدوري أن أختبئ خلف هويَّتي الإسرائيليَّة التي أَمَّنت لي قبل وقتٍ قصيرٍ حمايةً جزئيَّةً. وأَقْصد بـ «جزئيَّة» أنَّني كنتُ محميّاً جزئيّاً من الرصاصات العفويَّة والضربِ الفوريّ. أُدْرك أنَّه إذا قرَّر الجنديُّ أن يَطْلب مني بطاقتي، فاكتَشَفَ أنَّني من الناصرة، فإنَّني سأكون عُرضةً لمفاجآتٍ ما. والسبب في ذلك أنَّ الإسرائيليِّين، في الأيام القليلة الأخيرة، وبعد ٥٢ سنة، فَهِمُوا ـ وإنْ على غير اقتناع ـ أنَّ مَنْ يسمُّونهم «عربَ إسرائيل» قد مُسِخُوا فلسطينيِّين. وهذا يعني للجنديّ عند الحاجز أنَّني الآن من الناصرة، سواء أكنتُ أحمل بطاقةً إسرائيليَّةً أم لا، وأنَّني مِنْ ثَمَّ كاشِرٌ [حلالٌ] للقتل. أخيرًا، أو مرَّةً ثانيةً، أوْ عودًا على بدء، صِرْنا مساوين للفلسطينيِّين، بل في الأيام القليلة الأخيرة كنّا غالبًا ما نُسْلَبُ إنسانيَّتنا بدرجة أكبر من إخواننا في الضفَّة الغربيَّة أنفسِهم. فها نحن، «عربَ إسرائيل،» «عَربَهم هم،» ارتديْنا الكوفيَّاتِ ورمَيْنا الحجارةَ عليهم. طوال ٥٢ عامًا والإسرائيليُّون يضعون رؤوسَهم في الرمال ويَكْتمون أنفاسَهم. والآن، حسنًا، صار بمقدورهم أن يَتَنفَّسوا، ولكنَّ الهواء ليس نقيّاً جداً:. فهناك أشخاصٌ يُحرْقون الدواليبَ في الناصرة، ويُحْرقون الأعلامَ الإسرائيليَّةَ والمخازنَ الكُبْرى؛ إنَّهم الغاضبون غضبًا مزدوجًا: غاضبون لكونهم عبيدًا حُصِروا في غيتوات، وغاضبون لأنَّهم فلسطينيُّون ازدادت فَلَسْطَنَتُهُمْ.

دخانٌ أسود يتصاعد من قمم التلال. السكّان الأصليُّون مصطفُّون على قمم التلال، ولكنَّ الشيء الوحيد الذي يَفْهمه الإسرائيليُّون من ظهورنا هناك هو أنَّنا نتهيّأ لسلخ فرواتِ بعضِ الرؤوس.

أنا في القدس. على أحدٍ ما أن يأخذ أمي إلى المستشفى في الناصرة. أمِّي تعاني السكّريّ والتهابًا حادّاً في الساق. لا أطبّاء متوفِّرون لأنَّهم مشغولون بالاعتناء بالجرحى. المركز الطبيّ في الناصرة أَغْلق أبوابَه. ابنة أختي تحاول أن تَبْلغ بيتَ أمِّي، ولكنَّها تَفْشل في عبور خطّ النار. الالتهاب في ساق أمي بَلَغَ العَظْم. أنتَ تَعْلم أنَّني أحبّ أمي. إذا تعذَّبتْ أمي وماتت بسبب الرصاص الإسرائيليّ فإنَّني لا أَعْلم كيف سأتعامل مع فكرة التسامح. لم أُخلَقْ لأَقْتُلَ، ولكنَّني سأفعلُ ذلك من أجل أمِّي إنْ لم تصل إلى المستشفى.

لا أستطيع أن أصِل إلى حبيبتي. إنَّها تعيش في الضفَّة الغربيَّة. أُتلفن. أَسْمع إطلاقَ النار على الطرف الآخر من التلفون. «أَطْفئي الأنوار،» أقول لها. «أَطفئي التلفزيون» الذي يَنْقل صورَ إطلاق النار الذي أَسْمعه على الهاتف. أتابع: «إنَّ إطفاء التلفزيون لن يُسْكت البنادقَ في الخارج، ولكنَّه على الأقلّ سيبقِّيها على نظام مونو [أحاديّ] لا على نظام دولبي ساراوند.»

لا أستطيع أن أرى حبيبتي. لا أستطيع أن أرى أمِّي. لا أستطيع أن أَستند إلى كَتِفِ أيٍّ منهما، ولا أستطيع أن أتناوبَ بين صدريْهما. لا أستطيع أن أعوِّض الواحدةَ من الأخرى. لا أستطيع أن أكون من دون أيٍّ منهما. على أحدٍ ما أن يكون مسؤولاً إزاء هذه المسألة: أهو فرويْد أم الجيش الإسرائيليّ؟!

**إيليا سليمان**

سينمائيّ فلسطينيّ. من أفلامه: «تكريم قاتل» و«سِجلّ اختفاء.» نال عدّة جوائز عربيَّة وعالميَّة. وهذا النصّ صَدَرَ أصلاً في مجلة **Cahiers du Cinema** الفرنسيَّة، عدد تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، وأَرْسله المؤلِّف إلى الآداب.